الباب الأول

«وصف العالم الآخر في القرآن الكريم»

الفصل الأول: أوصاف اليوم الآخر وطرائقها

الفصل الثاني: أوصاف الجنَّة في العالم الآخر

الفصل الثالث: أوصاف النَّار في العالم الآخر

الفصل الأول

أوصاف اليوم الآخر وطرائقها

شخّصت آيات القرآن الكريم يوم البعث والنشور، وحشر الناس من القبور، ليقوموا للحساب تشخيصاً حسياً حياً، ووصفت مراحل هذا الحشر العظيم بدقة، وصفت الإنسان، حين يُنفخ في الصور، ثم كيف يهرع الناس سراعاً إلى ساح الحساب، وينقلب الكون إلى تظاهرة رعيبة؛ حيث ترجف الأرض، وتنفطر السماء، وتنتثر الكواكب، وتندك الجبال، وتزول النجوم، وتتبدل المعالم المألوفة ليسود نظام جديد، فالسموات على اتساعها اللانهائي، تُطوى كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتب، ثم يُعرَض الناس على خالقهم ليحاسبهم على أعمالهم.

كما يصف الأسلوب القرآني تلك الحالة النفسية التي تعتمل في نفوس المبعوثين للحساب ذلك كله في جوٍّ يثير الرهبة، حين تبرز جهنم للعصاة، ترمي بشرر كالقصر، تدعو من أعرض واستكبر، ولا يذَرُ القرآن وسيلة فنية في عرض مشاهد البعث والنشور، والحشر من القبور إلا أتى عليها لتشكل جسراً تعبر عليه المعاني إلى النفس الإنسانية بسهولة ويسر.

١

تدرّج الوصف القرآني في عرض صور الحشر، ومشاهد البعث وشخّص ذلك بأسلوب فني يمزج بين عناصر الوصف والتخييل، من استعارة أو كناية، ويتناول النفخة الأولى في الصور، التي تكون بدءًا للحشر، ثم الثانية[1] التي

(١) «النسفي» ٤/٣٣٦: «النفخ في الصور اثنتان: واحدة للموت، والثانية للإعادة، =

ينسلّ بعدها الناس من القبور فزعين وَجِلين[1]، ويَشَّقَّقُ الوصف عن جوانب أخرى تزيد في جلاء الصور ووضوحها، فالمحشورون داخرون تارة، أخذ عليهم هول الموقف قلوبهم، فهي تَجِفُ مضطربة، ويتهامس المقصرون تارة أخرى «يقلبون أبصارهم في كل الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب»[2] قائلين: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢]، ذلك كله ضمن إطار الوصف الحيّ المتحرك الذي يفيض بالدقة في رسم أبعاد الصورة كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

٢ـ تَداعي الكَوْنِ

وتتسع دائرة الوصف في الساعات الأولى للحشر، حيث يشير القرآن بأسلوب وصفي فني إلى أن هذه السماء المتسعة، بل السموات كلّها قد طويت، والأرض في قبضة الحق ارتفعت عنها أيدي المالكين[3]، وبعد هذه الصورة

= والجمهور على أنها ثلاث: الأولى للفزع، والثانية للموت، والثالثة للإعادة».

(١) «حسن البيان في تفسير مفردات القرآن» تأليف الأستاذ محيي الدين الخاني ص: ٢٥٨.

(٢) تفسير «الكشاف» للزمخشري ٣/ ٣٤.

* الزمخشري /١٠٧٥ ـ ١١٤٤/ ولد في زمخشر، إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير، سمّوه جار الله لأنه جاور مكة، كان معتزلي الاعتقاد. من مؤلفاته غير الكشاف «أطواق الذهب في المواعظ والخطب» و «أساس البلاغة».

(٣) أشار الشريف الرضي إلى استعارتين في هذه الآية، وأورد معنى لطيفاً فيهما حين قال: «معنى قبضته ههنا: ملك له خالص قد ارتفعت عنه أيدي المالكين من رعيته».

ـ انظر «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٢٠٩، كما أشار الزمخشري في «الكشاف» إلى أن «الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية ومؤدى ذلك الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان، ولا تكتنفها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى =

يعرض الوصف القرآني مرة أخرى للنفخ في الصور، ليبين كيف يصعق الناس قاطبة، إلا من شاء الله تعالى. والأرض تشرق بنور ربها بما يقام فيها من العدل[1]، ويبدأ الحساب، ويحضر الهداة والمعلمون، الأنبياء والمصلحون، ليكونوا شهداء صدق وحق، هذا هو المشهد المتكامل للنفخ الذي يصفه القرآن يبدو مشهداً حياً متحركاً، بل يمور بالحيوية والحركة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ـ٦٩].

هذه الصيحة التي يصفها القرآن وصفاً معبراً بأنها زجرة قوية قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]. ووصفها القرآن مبيناً قصر تلك الصيحة وقوتها، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [صٓ: ١٥].

وقد يضيف بيان القرآن إلى صورة النفخ في الصور وصفاً آخر لحالة نفسية يشعر بها الإنسان، وقد دعي للحساب والجزاء، مع تلوين في عرض هذه الحالة النفسية واستثمار الوصف الموحي الذي يجسّد الأحاسيس النفسية فالفزع والرعب يستبد بالناس إلا أقلّهم، ثم يتقدم المحشورون داخرين. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

= الوقوف عليه، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات...».
«الكشاف» للزمخشري ٣/ ٣٤

(١) أورد النسفي أن: «أشرقت الأرض بنور ربها» أي: «بِعَدْلِهِ بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بِعَدْلِكَ وأضاءت الدنيا بقسطك». تفسير القرآن الجليل للنسفي ٤/ ٣٢٦

وفي آيات أخر تتسع صور الحشر شيئاً بعد شيء إذ يتوقف هؤلاء المحشورون ينظر بعضهم بعضاً، يتلاومون ويختصمون، وهم كلّهم محضرون، فإذا صرخة واحدة تفاجئهم وتأخذ بمجامع قلوبهم. قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]. وقد تقطعت العلاقات؛ فلا توصية ولا نسب ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠]. ويصف القرآن مراحل هذا الحشر بتلاحقه الزمني والنفسي يصف مراحل الانسلال: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، ثم تأتي الصيحة الثانية فإذا جميع هؤلاء أمام الحق محضرون مسلمون، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

٣ـ وَصْفُ النّشورِ

وفي سبيل عرض الصورة حيّةً شاخصةً لما يلي النفخَةَ في الصور يصفُ القرآن خروج الناس من قبورهم، وما يعتلي وجوههم من ذلة، وأبصارهم من خشوع، يسرعون مهطعين إلى الداعي... ويسير الوصف على هذا النحو حتى ترتسم الصور الفنية، متكاملة حيّة في خيال السامع، فالأرض تشقّق عن الناس الذين يتدفقون من جوفها مستوين أحياء. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. وأظهر الدكتور البوطي جمال تلك الصور حين تحدث عن أن الله عزَّ وجلَّ بيَّن «أن الأموات سوف يبعثون من قبُورهم، وتعود إليهم الحياة، ليواجهوا جزاءهم، وأن ذلك يسير على الله عزَّ وجلَّ». ويقول: «ولا ريب أنك إذا قرأت هذه الآية تصورت أمامك أرضاً واسعة المدى، تتشقق عن أشخاص هنا وهناك، يخرجون منها ليسرعوا إلى حيث لا يدرون، أجل، فالآية تترك في ذهن القارىء هذه الصورة الحية المتحركة، ليصور الأمر البعيد واقعاً يشاهده بعينيه في بساطة ويسر»[1].

---

(١) «أحسن الحديث» الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص: ١٥٣.

* الدكتور محمد سعيد البوطي أستاذ في جامعة دمشق كاتب ومفكر إسلامي، له كتب كثيرة منها «كبرى اليقينيات الكونية».

ويتابع الوصف القرآني هؤلاء الذين نهضوا من التراب ينفضونه ويتوجهون مسرعين كمن يتوخّى هدفاً[1] قريب المنال، يصف القرآن خشوع الأبصار والذِّلة المرهقة التي يشعرون بها، كنايةً عن الانخذال في ذلك اليوم الذي كانوا به غير مصدقين، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣ـ٤٤].

وفي سورة أخرى يوصف المحشورون خاشعين ذليلين وهم أشبه ما يكونون بالجراد المنتشر في الكثرة والتموّج[2]، قد أمالوا أعناقهم وأسرعوا، وكأن المرء يرى هذه الأعناق مشدودة لا تستطيع حراكاً؛ وهم يتجرعون غصص الندم والحيرة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦].

ثم يرسم الوصف القرآني إحدى الصور في ذلك اليوم ـ يوم الحشر ـ حيث القلوب خائفة مضطربة والنفوس المنكرة مشارفة على دخول النار كاظمة على ما فيها من غمّ وكرب[3]. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

٤ـ بَيْنَ يَدي الحَشر

وصف القرآن الكريم مراحل الحشر، ووسّع في رسم اللوحة الفنية التي تجعل ذلك اليوم حيًّا في الذهن، قائماً في الخيال، حيث تتضافر عناصر فنيّة كثيرة في تحديد أبعاد ذلك اليوم: فالأرض والجبال رمز الثبات في عالم الإنسان، ترجفان وتضطربان[4]، كما أن الراسيات الشامخات من الجبال

(١) «الكشاف» للزمخشري ٣/٢١٨.
(٢) الكشاف للزمخشري ٣/١٤٨
(٣) الكشاف ٣/ ٤٠
(٤) «الكشاف» للإمام جار الله محمود الزمخشري ٣/٢٢٨

لا تقوى، بل تتحول فيه إلى كثيبٍ مُهال. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

هذا الوصف المعبر عن حقائق ثابتة الوقوع يتكىء على الاستعارات المكنية التي تدعم الوصف وتغنيه بشكل ملحوظ، ليكون الوصف أكثر ثباتاً في الذهن. فيوم القيامة طامّة تطمّ على الدواهي كلّها[1]...

كما وُصف اليوم ذاك باليوم العَبوس القمطرير الشديد، وهو ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]. كما وُصف ذلك اليوم بالحاقة والقارعة التي تقرع الناس، فكلّ هذه الاستعارات تدع الخيال يتملّى تلك الصورة الفنية التي يصوغها بيان القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤].

وفي موضع آخر يرفع القرآن كلمة «الطامّة»، ليستخدم «الصاخّة» بديلاً عنها؛ لأن لكليهما مكانَه المناسب الذي ينسجم مع السياق والإيحاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

وهكذا تتناوب كلمتا الصّاخّة والطامّة لتُجَسّدا ذلك اليوم وتُكسِبا الوصف حيوية وواقعية محسوسة.

وقد يتكرر وصف الساعات الأولى التي تسبق الحشر، بأساليب متعددة متقاربة، حتى توشك أن تكون بعض جزئياتها عينها تكوّن من مجموعها مشهد الحشر، وإن تباعدت هذه الجزئيات أو توزعت في سور مختلفات، فالأرض في سورة الواقعة ترجّ رجّاً وكأنها في رجم كوني يتجاوب ثقل ما تقذف به الأرض في أنحاء السماء، أورد ابن كثير[2] في حديثه عن هذه الآية، أن الأرض «حركت تحريكاً، فاهتزت واضطربت بِطُولها وعرضها، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كَرَجِّ الغربال بما فيه». كما أن الجبال تُبَسُّ بسّاً ثم تصبح هباء مفتّتاً، متفرقاً منبثّاً، «وعن أبي إسحَق عن الحارث عن علي رضي الله عنه؛ أن

(١) تفسير النسفي ٥/ ٣٢٢

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٢

الجبال تصبح هباءً منبثاً كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء[1]» في حين يرى ابن عباس أن الهباء هو الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. . . هذه هي الواقعة التي تخفض وترفع، وتُعلي وتضع، والتي وصفت في أكثر من سورة بأكثر من وصف. فمن الاستعارة المكنية يتكون المشهد الذي يقف الناس فيه قياماً على أمشاط أرجلهم ينظرون[2]، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ١ـ٦].

أما في سورة الطور فتكثر الصور المتحركة التي يتكىء عليها الوصف ليجسد أهوال ذلك اليوم، فالسماء تمور موراً، حيث تضطرب، وتجيء وتذهب، وتتحرك في تموّج شديد، والجبال تسير سيراً مطلقاً، وإن كانت في سور أخرى تصبح كالعهن المنفوش، أو تصبح هباءً منبثاً، لكنها هنا تسير سيراً. . . وهذه الأوصاف متكاملة تكوّن شريطاً متلاحقاً، وتجسد مراحل متتالية في الساعات الأولى للحشر.

ولا يفوت القرآنَ في هذا الموقف الجليل وصفُ الإنسان المكذب الذي يرى بعينه هذه المظاهر الكونية المذهلة، حيث يتذكر ماضيه في الحياة يوم كان يخوض مع الخائضين «ويندفع في الباطل والكذب»[3] اندفاع السهم، كل ذلك في وصف متناسق منسجم، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ٧ـ١٢].

ويصل المشهد الوصفي لذلك اليوم تمامه حين تتغير معالم الوجود وتستوي الأرض[4]، وتتسع الصورة إلى آفاق السماء الرحيبة اللامتناهية، إلى كواكبها

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٢

(٢) «تلخيص البيان» للشريف الرضي ص: ٢٣٩، وتفسير الآية (١٩) من سورة الصافات في تفسير البيضاوي ص: ٦٢٠

(٣) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ١٤٠

(٤) «الكشاف» ٣/ ٢٥٧

وأجرامها إلى البحار والمحيطات، إلى القبور الدارسة والمتناثرة ـ وقد بعث من فيها[1] ـ في أرجاء الأرض وهي عديدة عدة بني الإنسان، ذلك كله في يوم الحشر أو في أثنائه، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ـ٥].

إن الزمن لا يدرك بالحواس الظاهرة، لكن يوم القيامة كما يصفه القرآن ليس كبقية الأيام المألوفة، حيث تواجه فيه النفوس مصيراً أبدياً، فهذا اليوم عبوس مخيف، وقال قتادة: «تعبس فيه الوجوه من الهول»[2] ووصف ذلك اليوم بأنه «قمطرير» وقال قتادة أيضاً: «قمطريراً»: يقلّص الجبين، وما بين العينين من الهول، وقال ابن زيد: «العبوس: الشر، ورأى ابن عباس أن اليوم العبوس القمطرير هو أشد الأيام وأطولها في البلاء»[3]، وقال تعالى عن هذا اليوم واصفاً إياه بإيجاز كافٍ واف: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

ولا يقف الوصف عند هذا، بل يعمق الصورة البيانية لذلك اليوم الذي تأتي فيه الصاخة، منذرة بسوء المصير، ويتنكر إذ ذاك أقربُ الناس إلى قريبه، ويفر المرء ممن حوله خوفاً متوجّساً الشرّ فيهم، حتى في أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، خشية أن يطالبوا بالتبعات[4] التي عليه، أو لأنه في شغل عن أولئك كلهم، هكذا تسهم الاستعارة المكنية ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ في وصف المشهد وإكسابه الحيوية والإيحاء. قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ـ٣٧].

(١) تفسير النسفي ٥/ ٣٣٢ والكشاف للزمخشري ٣/ ٢٥٧

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٥

(٣) احتج ابن عباس بقول الشاعر:

بني عمّنا هل تذكرون بلاءَنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر

وذلك في تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٥.

(٤) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ٢٥٣، وأورد الزمخشري في الصفحة عينها أن «الصاخة هي نفخة البعث، وسميت بالصاخة على سبيل المجاز؛ لأن الناس يصيخون لها...»

وتصف آيات القرآن هذا اليوم بصفات كثيرة ليكون في مخيلة كل إنسان جاء إلى الحياة؛ لذلك دأبت آيات القرآن على تجسيده تجسيداً حسياً، وعرضت جوانب لأحداث تجري خلاله ليكتمل بيانه ويغتني، فهو في سورة غافر يوم الآزفة الذي ينذر منه الأنبياء، ويبدو أن هذا الوصف بالأزوف ليشير إلى مشارفة الكفار للنار[1] وقد لصقت قلوبهم بحناجرهم كناية عن شدة الهول. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وفي الساعات الأولى التي تسبق الدخول إلى الجنة أو النار يعرض القرآن مشهداً ذا أبعاد مترامية، موحياً بانتهاء المصير، تبدو فيه الشمس مكوّرة، والنجوم مكدّرة وذُهب بضوئها، وزال انبساطه، وانتشاره في الآفاق[2]، أما الجبال الشامخات فقد قُلِعَتْ عن الأرض، والوحوش حشرت، والبحار سجرت، ثم يظهر الإنسان وسط هذا الموقف مقروناً إلى مثيله ليسأل عن النفوس الموؤودة لم قُتلت؟ وما ذنبها؟... إذ ذاك تظهر صحف أعمال الإنسان بارزة لا غبار عليها، وتتكامل الصورة وتنمو متسعة حيث توصف السماء من جديد، ويبرز عنصر جديد: جهنم تعرض مستعرة متقدة، وتظهر كذلك الجنة قريبة غنيّة. هكذا تجمع الصورة الفنية في وصف القرآن مشاهد متباعدة مستندة أصلاً إلى الاستعارة وقدرتها الفنية. قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

(١) تفسير البيضاوي ص: ٦٤٩.

(٢) تفسير الإمام النسفي ٥/٢٢٨

* النسفي أبو البركات، معروف بحافظ الدين: إمام وفقيه ومحدث، دخل بغداد، توفي (١٣١٠ هـ) له «عقيدة أهل السنة والجماعة» و «كشف الأسرار وشرح المصنف على المنار» في الأصول و «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ويُعرف بتفسير النسفي.

هكذا تتكون الصورة الفنية وتغلفها إذا الظرفية التي يشير تكرارها إلى هول ذلك الظرف وعظم ما يترتب عليه من نتائج ومصائر.

٥ـ مَظاهِرُ الحَشرِ

لجأ القرآن الكريم من أجل تجسيد يوم الحشر، وما يتخلله من مظاهر، إلى وصف أحداث الحشر في الأرض والسماء، وإن كان أرضُ الحشر وسماؤه غير أرضنا وسمائنا، فالحشر بداية سماء جديدة، وأرض غير معهودة[1] ويستخدم الوصف في إظهار ذلك أساليب التصوير البياني كلها من تشبيه واستعارة وكناية، وصور حركية أو لونية، لترسم الصورة متكاملة كاملة، ليوم البعث والنشور وينقلب ذلك اليوم ـ بفضل هذه الوسائل الواصفة في بيان القرآن ـ إلى تظاهرة كونية كبيرة، تشترك فيها السماء المحبوكة، والأرض والجبال وما بينهما، حتى إن الملائكة لتشهد ذلك المشهد، وتعيش في انتظار ساعة الحساب والجزاء...

وفي سورة الحاقة يصف القرآن أهوال ذلك اليوم، وتعتمد مادة هذا الوصف على الكلمة المفردة والاستعارة المكنيّة، ومن كليهما تتكون أجزاء الصورة الفنية، ويتجسد المعنى، و ، فالصور يُنفخ نفخة و ، وتُحمل الأرض والجبال فيها فتُدَكُّ دكة واحدة حتى تندق وترجع كثيباً مهيلاً، وهباء منبثاً، والدَّكُّ أبلغ من الدّق[2]. وتنشق السماء، فهي واهية مسترخية

(١) تفسير القرآن الجليل للإمام النسفي، لسورة إبراهيم ـ الآيات الأخيرة ٣/٩ ـ ١٠ وقد أورد الإمام النسفي أن التبديل والتغيير قد يكون في الذوات، كقولك: بدلت الدراهم دنانير، وفي الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل آخر، واختلف في تبديل الأرض، فقيل في الأوصاف: حيث تسير على الأرض جبالها، وتفجّر بحارها... وتبدل السماء بانتشار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها وكونها أبواباً... وقيل تخلق بدلها أرض وسماوات أخر.

(٢) «الكشاف» للإمام الزمخشري ٣/٢١٣.

ساقطة القوة بعد إحكام، والملك على أرجائها، ويحمل العرش على ثمانية...

بهذه الكيفية تتناسق عناصر الوصف، فيستوي الموصوف مشاهداً مدركاً. قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٧].

كما أن النفخة الموصوفة بالوحدة في هذه الآية إنما هي نفخة القيام للحساب، وتسبقها نفختان: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، ثم هذه التي فيها تُحمل الأرض وتُدك الجبال[1].

وتسهم سورة المرسلات كذلك في وصف مظاهر الحشر حيث تغني الصورةَ وتزيدها تشخيصاً، وإحياءً في الأذهان، فالنجوم تُطمس وتنكدر فيذهب بريقها وضوؤها، والكواكب المنتظمة العقد تنتثر، وينفرط نظامها، والسماء تتدلى أرجاؤها وتهي أطرافها[2]، والجبال تُنْسَفُ نسفاً فلا يبقى لها أثر، والرسل الكرام يتهيؤون للمثول حتى تكون ساعة الحساب، هذا الوصف الجزئي الذي يتناثر في ثنايا السور القرآنية وآياتها إنما يصف يوم البعث وما يقع فيه، وإذا تعددت الصور، وتلونت الأساليب فما ذلك إلا إظهار لمظاهر الحشر وإمكانية تخيلها، وفي سورة القيامة وصف آخر لهذا اليوم فالبصر يَبْرُق، والقمر يُخسف، ويجمع مع الشمس دون أن ندري إلى أين، والإنسان ـ وهو الذات المسؤولة ـ يقف مستغرباً متألماً متسائلاً: أين المفر؟ فيأتيه الجواب من أعماق المشهد: إلى ربك المستقر، هذا الوصف يمتاز بالرشاقة والخفة والحيوية، بما يتخلله من وصف الهواجس والخطرات والتساؤل في أعماق النفس، وما يعتلج فيها في ساعات الضيق والكرب.. قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٤
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٩

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[1] [القيامة: ٧ـ١٢].

ويلاحظ المتأمل في هذه الآيات أن الوصف القرآني استثمر خفّة الوزن، وقوة الإيقاع على الفكر والنفس حيث كانت الجمل قصيرة رشيقة تشكل مهمازاً للخيال الواهن أن يفيق وقد غُلّفَتْ هذه الأفعال بالظرف كبداية للحشر، ثم برز الإنسان...

كما أن الفعل المضارع الذي يُشعُّ الحركة، ويدفق الحياة في الصورة، ويكسبها استمراراً كان للقرآن عناية خاصة به ففي سورة الطور توصف السماء وصفاً حركياً، فهي على ضخامتها وحبكها تمور وتضطرب[2]، والجبال مع رُسُوِّها وثقلها تُلَمْلِمُ أشتاتها، ثم تسير وتذهب ذهاب المأمور. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ـ١٠].

ثم يوشك الإنسان أن يتخيل ذلك اليوم، ويعيش فيه بسبب من هذا الوصف المستفيض المتعدد، يتأمل أحداثه، وعي حقائقه، هذا اليومُ الموصوفُ يصبح ببيان القرآن معهوداً في الأذهان، متخيّلاً في الأوهام. لذا يجعل القرآن هذا اليوم إلى فترة معروفة كل وصف فيها من استعارة وكناية ليجسده بهما تجسيداً حياً، قال تعالى ـ وقد أبرز الإنسان مناط المسؤولية ـ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧ـ١٨].

ويمكن القول: إن أكثر عناصر الطبيعة مادة وصفية تصور ذلك اليوم: السماء، فقد وُصفت بالانفطار والانشقاق والتكوير، لكنها في سورة المعارج تتحول إلى سائل يغلي كالحميم، في حين أن الجبال تتفتت وتغدو كالعهن المنفوش، المصبوغ ألواناً[3]، بهذا التشبيه يُظهر وصفُ القرآن السماء والجبال، ولا ينسى في غمرة الحديث عنهما أن يبرز الإنسان الخائف

(١) برق البصر: تحيّر فزعاً، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره.
(٢) تفسير النسفي ٥/٩٧
(٣) أورد الزمخشري في «الكشاف»: «إن سبب تسميتها بالعهن لأن الجبال ذات ألوان عديدة فإذا اندكت، واختلطت أشبهت العهن المنفوش إذا ضربته الريح». «الكشاف» للزمخشري ٣/٢١٦

المتسائل. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ٨-١٠].

وفي سورة الرحمن تنشق السماء، وتبدو محتقنة، ويبرز العنصر اللوني إلى جانب الحركي ليقرب الصورة من الأذهان. قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وأظهر ابن باقيا البغدادي في «جمانه»[1] إعجابه بهذه الصورة، وأورد في شرحها «أن السماء تنشق وينفرط عقدها، ثم تجري بأمر الله».

أما في سورة الرّوم فالسماء والأرض تتحولان إلى مخلوقات حيّة عاقلة، تأتمر بأمر الله، ثم يَعْقُبُ قيامَهما قيامُ الناس من القبور: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وفي سورة الانشقاق نلحظ صورة قريبة من ذلك، يوصف بها يوم القيامة، وتعرض صوراً مما سيكون، فالسماء تنشق والأرض تمتد. وبعد هذين الوصفين يبسط القرآن وصفاً متمماً ليكتمل إطار الصورة الوصفي ليلحق بالسماء والأرض ما يتناسب معهما، وذلك واضح في الآيتين اللتين تعقبان السماء والأرض مكثفتين. قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥]. ويعلّق الزمخشري على هذا الوصف الفني بقوله: «وللسامع أن يتخيل من آية ﴿وإذا الأرض مدّت﴾ إنزالَ الجبال والإكام وكل أَمْتٍ فيها حتى تمتد وتنبسط وستوي ظهرها، فتكون صفصفاً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً»[2].

كما أن الوصف القرآني يستخدم التشبيه لتقريب الحقائق، فقددأبت آيات القرآن على وصف مظاهر الحشر، في الأرض تارة، وفي السماء تارة أخرى، وفي الأرض والسماء تارة ثالثة، بحيث يتكون من مجموع هذه الأوصاف لوحة

(١) الجمان في تشبيهات القرآن، لابن باقيا البغدادي ص: ٣٢٨ ـ الطبعة الأولى ـ الكويت تحقيق عدنان زرزور، ومحمد رضوان الداية.

(٢) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ٢٦١.

فنيّة غنيّة، تجعل مظاهر الحشر مشاهدة مدركة تجسها النفوس[1].

ومن أمثلة ذلك وصف بيان القرآن للسماء، فهي على أبعادها البعيدة تطويها القدرة الإلهية في يوم الحشر كما يطوي الكاتب صحفه[2] وإن كانت في آيات أخرى تَشَقَّقُ بالغمام ثم تصبح واهية، أمّا نجوم السماء اللامعة المتلألئة في الآفاق فإنها تنطمس، والقمر يزول... مظاهر مروعة فعلاً. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وأشار الشريف الرضي إلى أنه في هذه الآية الكريمة «استعارة، والمراد إبطال السماء، ونقض بنيانها، وإعدام جملتها، من قولهم: طوى الدهرُ آل فلان»[3].

وأنبأنا تعالى عن دخول هذا الكون كله تحت سلطانه، وأنه ليس إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لملكه وعظم قدرته، ولكنه وضع هذا المعنى في صورة مخيلة محسوسة يمتلىء بها الخيال والحس ويذوب فيها الشعور، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

فأنت لست في هذه الآية أمام كلمات الملك والسلطان والعظمة ونحوها مما هو من مفهومات الفكر المتأمل، ولكنك أمام الهول العجيب الذي يذهل له الحس، وتخشع له المشاعر: الأرض جميعاً شيء صغير في قبضة الله، والسموات كلها بأجرامها العظيمة قد طُويت كما يُطوى البساط أو الصحيفة، فهي ليست إلا جرماً صغيراً لا تكاد تمتلىء به العين مشدودة في يمين الله عزَّ وجلَّ، وليس هناك من يمين ولا قبضة ولا طيّ بالمعنى الحسي المعروف، ولكنه التخييل والتجسيم للمعنى الذهني، كي يفيض الشعور والخيال إحساساً به[4].

---

(١) في سورة الواقعة الآيات الأوليات.
(٢) تفسير النسفي ٥/ ٢٥٦.
(٣) «تلخيص البيان» للشريف الرضي.
(٤) «أحسن الحديث» للدكتور البوطي ص: ١٥٥

٦ـ أحْدَاثُ يَوْمِ الحشْرِ

وصف القرآن الكريم يوم القيامة، وما يجري خلاله من وقائع وصفاً متكاملاً، مشخِّصاً، حيث وصف المكان الذي يشكل أرضية للوصف الفني، ومسرحاً لأحداث ذلك اليوم، وينثر القرآن كثيراً من جزئيات الوصف التي تكون هيكلاً عاماً لذلك اليوم، وأبرز الوصف كذلك الجانب الإنساني المادي، وسلّط عليه أضواءً ساطعة وأضاء ذلك الموقف وما قد يتخلله من وقائع، فالأرض غير أرضنا، تظهر وسيعة ممتدة، أشرقت بنور ربها، وأضاءت جوانبها فإذا هي بيضاء نقية... في هذا الجو القدسي يظهر عمل الإنسان مجسَّداً أمامه، ويبدأ العرض الحَشْري، فتتقدم الأنبياء والشهداء، وفي لمحة خاطفة يتم الفصل بين أولئك بالحق وهم لا يظلمون، وإذا بالكافر قد أُسْقِطَ في يده، واستولى عليه الرعب... هكذا يتكامل المشهد الحَشْري الحي ليظهر بوصفه ذلك العالم النفسي الذي يعيشه الإنسان... حيث تبدو آثار الضرع وأعلام الجزع، جسدت ذلك الآية الكريمة ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

وأشار الشريف الرضي في «تلخيص البيان» إلى أن الاستعارة في هذه الآية تظهر ما يلحق بالوجوه من الوجوم يوم القيامة. قال: «وهذه استعارة، والمراد ما يظهر في الوجوه يوم القيامة من آثار الضرع، وأعلام الجزع»[1].

ويظهر وصف القرآن يوم القيامة بأسلوب التصوير والتخييل والبيان... يبدأ عرض المشهد حيث تبرز الذات الإلهية ويسيطر على الكون جلال وخشوع. وأورد الزمخشري في «كشافه» أن ذلك «تمثيل لظهور آيات اقتدار الله، وتبين آثار قهره وسلطانه كالمَلِكِ إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها، ووزرائه وخواصه عن بكرة

(١) «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ص: ١٤٠.

أبيهم»[1]... كذلك يتقدم الملائكة صفوفاً كأنهم في استعراض يوم عظيم وتتكامل اللوحة الوصفية إذْ تُنقل جهنم أو يجاء بها إلى مكان المحاجّة، وفي هذا الوسط المليء بالرهبة يظهر الإنسان كعنصر أخير في لوحة فنية، سواء في عالمه النفسي أو المادي، ثم يعود القَهْقَرى نحو حياة فانية قضاها، يتذكر أحداثها وما جنته يمناه، وأنى له الذكرى... ؟ هذا الوصف الفني لبدايات الحشر يتجسد واضحاً في وصف القرآن الموجز. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٢-٢٣].

وتتسع دائرة الوصف حين تعرض نوعين من الإنسان في بداية الحشر تتخذ فيهما الألوان تُكَأَةً فنيّة، تشخص الأحاسيس النفسية، وما يعتلج في الضمائر الإنسانية حيث تقطعت في هذا اليوم الأسباب، وانسدت فيه مسالك الاعتذار. واللون له قدرة على التأثير والإحياء وهو عنصر من عناصر الوصف الرئيسة، وليكون هذا المشهد متناسقاً يظهر عنصر الحوار، المنبعث من ناحية مجهولة الرؤية، من الملائكة فيلتفت الإنسان دهشاً، ويشير الدكتور صبحي الصالح إلى أنه: «لا تتم الصورة الأدبية، ولا يعوض بالصورة المرسومة الشخص الحيّ تعويضاً كاملاً، إلا إذا أضاف إلى ذلك كله الحالة النفسية المعنوية التي تنسجم مع الوصف الشكلي الخارجي فيتناسقان تناسقا فنياً»[2] ويشير كذلك إلى أن الصورة ينبغي لها «أن تنقل الشيء المصور نقلاً أميناً دقيقاً، يكاد يكون حياً»[2] فالمشهد القرآني متناسق صوتاً ولوناً وحركة يستغل حواس الإنسان. وإذا كانت القدرة الإيحائية للألوان قليلة أو ضعيفة لا تثبت في الذاكرة «لأنها أعراض قلّما ينتبه إليها الإنسان أو تلتقطها إحساساته»[3] فإن الألوان في وصف القرآن غير ذلك، إنها ترد بأسلوب ثنائي لترسم حالة نفسية تستقر وراءها. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا

(١) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ٢٧١.
(٢) «محاضرات في الفنون والمدارس الأدبية» الدكتور صبحي الصالح ص: ٥٣
(٣) «محاضرات في الفنون والمدارس الأدبية» للدكتور صبحي الصالح ص: ٤٢.

﴿ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

ويُظهر الوصف القرآني في سورة الكهف طرفاً من اضطراب الناس وخوفهم يوم الحشر حين ينشرون من القبور للحساب، ويستخدم الوصف هنا الاستعارة المكنية الرشيقة فالناس يموجون، بعضهم في بعض، حين يخرجون[1]، كأمواه البحر الصخّاب، وقد جمعتهم نفخة الحساب، ثم يجمعون، وتستقدم جهنم ثم يعرض عليها الكافرون، أو تعرض هي عليهم عرضاً، تتقطع له نِياط قلوبهم، وينساب الخوف إلى أفئدتهم وتظهر علامات الجزع على أعينهم التي كانت في حجاب، وسترها غطاء عن ذكر الله وآياته، بل كانوا لا يسمعون الحق وكأن في آذانهم وقراً، هكذا يتبدى الوصف القرآني في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩-١٠١].

وتصف آيات سورة القلم المعرضين عن الحق وصفاً كنائياً يمور بالحيوية والإيحاء، ويشيد من نحو إلى السبب الذي قادهم إلى موقف الذل والصَّغار، فأبصارهم خاشعة ذليلة كليلة، لا تقوى على ذل وهوان، هذا الوصف يجسد ذلك الندم الذي يصيب المجرم يوم تنكشف له الحقائق، تعبيراً عما في النفوس من عظم الخطب وشدة الأمر[2]، وقال ابن عباس عن تلك الوقفة إنها «أشد ساعة تكون في يوم القيامة» حيث تبدو الأعمال[3]، وهكذا اقترن وصف ساعة الهول بتلك الصورة الفنية للأبصار الخاشعة التي ترهقها الذلة والشنار. قال

(١) «الكشاف» ٢/٢١٨

(٢) جاء في حاشية تفسير القرآن الجليل للإمام النسفي ٥/٤٢٤: «معنى يوم يكشف عن ساق: يوم يشتد الأمر، ويصعب، ولا كشف ثَمَّةَ ولا ساق ولكن كني به عن الشدة لأنهم إذا ابتلوا بشدّة كشفوا عن الساق، وهذا كما تقول للأقطع الشحيح «يده مغلولة» ولا يد ثمة ولا غل، وإنما هو كناية عن البخل، وأمّا من شبه فلضيق عطنه، وقلة نظره في علم البيان، ولو كان الأمر كما زعم المشبّه لكان من حق الساق أن تُعرَّف لأنها ساق معهودة عنده».

(٣) تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤/٤٠٨ تفسير سورة القلم.

تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٢ـ٤٣].

وكما وصف المُعْرِض وهو أَسِفٌ خاشع البصر، وُصف الظالم يجسد تلك الانفعالات والمشاعر النفسية التي تنتابه، وتملأ جوانحه. والكناية هي التي اتكأ عليها القرآن ورضيها وسيلة فنية يصف بها الظالم الذي أوشك بل راح يعَضُّ أصابعه ندماً وتفريجاً. وينطق فمه بكلمات مملوءة بالحسرة والندامة لأنه جفا الرسول ﷺ، ولم يسلك معه طريق الرشد، فهذا الظالم نهبة لعاملين نفسيين، الغيظ والحسرة[1] لذلك وصفته الآية بأنه «يعض يديه» وقد جاء في تفسير النسفي توضيح لهذه الصورة الفنية. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٨].

وتناول الوصفُ الإنسانَ الفرد ضمن مجموعة بشرية متجانسة، في يوم القيامة؛ ففي سورة الجاثية يصور القرآن كلّ جماعة «باركة مستوفزة على الركب»[2] وهي تدعى لأعمالها، فكل طائفة من الناس اتُّخِذَ لها دستورٌ ومنهج يفسر مسيرها، ولكن في يوم القيامة تذوب الأباطيل، وتظهر الحقائق، كل ذلك بالأسلوب الكنائي أليس الجثوُّ مظهراً من مظاهر الخوف والإرهاق والنصب. قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] [الجاثية: ٢٨].

أكاد أجزم في القول أن آيات القرآن على تباعدها في السور متعاونة على رسم مشهد واحد، ففي سورة الحج يتجسد ذلك الخوف والذكر الذي

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٣٧٣ «عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لأنه من روادفها، فتذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة ما لا يجده الحس، فكلّ من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم عَلَمٍ لا محالة فجعل كناية عنه، وقيل كناية عن الشيطان...».

(٢) الكشاف ٣/ ٩٥

(٣) وانظر تفسير ابن كثير ج ٤/ ١٥٢.

يحمل المرأة لأن تذهل عن وليدها، ثم تضع كل ذات حمل حملها، ورأى الشريف الرضي في هذه الآية «استعارة لأن حقيقة الزلزلة هي حركة الأرض، على الحال المفزعة... والمراد بزلزلة الساعة، رجفان القلب من خوفها، واضطراب الأقدام من روعة موقفها»[1] ويشهد بذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

وقد أشار الزمخشري إلى أن القرآن استخدم كلمة «مرضعة دون مرضع؛ لأن المرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثدييها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه ـ وقد ألقمت الرضيع ثدييها ـ نزعته عن فيه، لما يلحقها من الشدّة، وقال الحسن: تذهل المرضعة عن وليدها لغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام»[2].

بهذه الدقة يظهر الوصف القرآني وإن كان في كلمة ﴿كل ذات حمل...﴾ وكلمة ﴿تذهل كل مرضعة...﴾ تعميم، بل إن هذا التعميم أو الإطلاق إنما يصف ما ينطوي تحتهما من حقيقة الخوف والذهول، الخوف الذي يجعل الناس في ذلك اليوم في بحر من الرعب تتقاذفهم أمواج الرّهبة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ـ٢].

ويتابع الوصف القرآني رسم مشهد هؤلاء بعد خروجهم من قبورهم، وهم يتّبعون الداعي في خشوع يخلفونه لا عوج له فلا صوت «حيث خفضت الأصوات من شدّة الفزع، وخفتت فلا تسمع إلا همساً»[3] كذلك ولا حركة أو طرفة عين، لقد استبد الخوف بمجامع قلوبهم، وأسكتت المفاجأة صوتهم، وشعر الظالم بالخيبة والحسرة القاتلة، كما وصفت آيات القرآن الإنسان من

(١) البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ١٤٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٧٤.
(٣) «الكشاف» للزمخشري ٢/ ٢٥٣.

أعماق ذاته حيث اغتلى الندم فيها، فلم يجد ما يخفف به انفعاله إلا تحريك شفتيه هامساً كأنما يناجي نفسه، هذه هي صورة الإنسان، تعمرها حيوية وواقعية دقة الوصف الفني وقدرته على تصوير ووصف ما سيكون من وقائع الحشر وأحداث الحساب يوم الإنابة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه. ١٠٨ و١١١].

وأخيراً ترسم آيات القرآن آخر صورة للإنسان بعد أن توجه إلى ساح الحساب، فتكون صورته الوصفية كاملة متكاملة، متسقة العناصر، كما يظهر الناس المحشورون الذين وصفوا في سور قرآنية كثيرة، في مشهد أخير وهم يعرضون على ربهم، وأورد البيضاوي في أثناء شرحه لآية العرض «أن هذا العرض أشبه ما يكون بحالة الجند المعروضين على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم»[1].

كما أن حالتهم في هذه العرضة أشبه ما تكون في الضعف وقلة الحيلة، وعدم امتلاك الأشياء، بحال يوم خُلقوا أول مرة ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨] بهذا التشبيه جسد الوصف القرآني ضعف الإنسان الذي ظن أن الحياة عبث ولهو، ولا حشر ولا موعد للقاء، ولا حقيقة لجزاء...

ولتتضح الصورة متكاملةً متناسقةً ليوم الحشر خصّت آياتُ القرآنِ الكافرَ بوصف دقيق، يبرز ما يعتريه من مظاهر الخوف وعلامات الوجل والاضطراب، وقد يتناول الوصف المظاهر الخارجية، ويكون البصر - في وصف القرآن - أوضحها؛ فهو خاشع ذليل، شاخص كليل، كما أن الرأس في ذلك اليوم خافض متدلٍّ، كناية عن الصَّغار والهوان، ويتناول الوصف كذلك

(١) تفسير القرآن الكريم للبيضاوي ص: ٤٢١.

الوجوه التي تعلوها الغبرة، وترهقها القترة، إنه هول عظيم يجعل رأس الطفل أشيب[1].

ويتناول الوصف كذلك الصراعات النفسية التي تتناوب نفس الكافر يوم الحشر؛ فهو ضائع، فارغ الفؤاد، مضطرب الجَنان، لا يعرف أين يسير، وكيف سيصير، يتبع كل صيحة مهطعاً مُقْنِعاً رأسه.

وجمال الصورة التي يبرزها وصف القرآن يكمن أحياناً في مزجه بين الناحيتين: النفسية والشكلية في أغلب الأحيان، ومن أوضح ما يدل على ذلك وصفُهُ البصرَ والفؤاد معاً، واختيار ما يناسب كلاً منهما ويلائمه، وبذلك يمزج بين المظاهر النفسية والخارجية التي تكون بسبب منها؛ ففي سورة النازعات وصفت القلوب بالوجوف، والأبصار بالخشوع، الرهبة في الأولى تسري بين أعطافها، والانكسار في الثانية يشع منها تساؤلات، كل ذلك في وصف سريع. قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩] ولعل في إضافة الأبصار للقلوب تعبيراً عن العلاقة بين القلب الخائف، والبصر الزائغ من الخوف[2]، وإذا كانت هذه الصورة الوصفية قليلة العناصر فإنها في سورة إبراهيم أكثر اتساعاً.

تبدو الصورة غنية في سورة إبراهيم وأكثر سعة عندما يصف القرآن البصر وقد شخص ذاهلاً، والكافر مشدوه يسير مشدوداً إلى أمام، ولا يُعرف لبصره قرار، وهو مفتوح محدود دون أن يحرك الكافر أجفانه، أما القلب ـ هو موطن الأحاسيس ـ فليس فيه شيء من ثقة أو اطمئنان[3] هكذا تتكون الصورة الفنية التي تصف الكافر وترسم أبعاد شخصه بأسلوب كنائي؛ فالفؤاد فارغ، والبصر خاشع، والرأس مُقْنِع، والمشية في إهطاع، عناصر كثيرة تحدد إطار صورة

(١) سبقت الإشارة إلى الآيات التي تصف الكافر يوم الحشر مبثوثة في مواضعها.

(٢) جاء في «البيضاوي» و «الكشاف» وتفسير النسفي ٣١٩/٥ «أن إضافة الأبصار للقلوب إنما معناه: أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]».

(٣) تفسير الكشاف للإمام الزمخشري ١٤٨/٢.

الظالمين ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. ولعل هذه القدرة البلاغية في إيفاء المعاني بوجوه مختلفة من سمات بلاغة القرآن والتي تجعل الكلام بليغاً؛ لأن البلاغة إنما يراد أن تخدم المعنى، وإلى هذا أشار الرافعي في قوله: «بيد أن طريقة البلاغة، إنما يراد بها تحقيق المعنى، واستبراء غايته، واستلاخ الشبهة منه، وأخذ الوجوه والمذاهب على النفس من أجزائه التي يتألف منها، بعد أن تستوفى على جهتها في الكلام، استيفاء يقابل ما يمكن أن تشعر به النفس من هذه الأجزاء حتى لا تصدف عنه، ولا تجد لها مذهباً ولا وجهاً غير القصد إليه فيكون من ذلك الإلزام البياني الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ، وكان حتماً مقضياً»[1].

وقد يستحضر القرآن صورة الكرب الشديد العالق بنفوس الناس يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]. و «الكرب» معنى اعتباري مجرد، ولكن الآية تبرزه في أروع صورة محسوسة مجسّمة، وصورة الكرب هنا هي تلك القلوب التي وَجِفَتْ وخفقَتْ حتى كأنها ارتفعت من أماكنها حتى التصقت بالحلوق، فلا هي تعود فَيَسْتَرْوِحوا، ولا تخرج فيستريحوا. وانظر إلى هذا الشمول الذي دلت عليه كلمة «القلوب» و «الحناجر»... فهو لم يضف القلوب والحناجر إلى أناس بأعيانهم، بل قطعهما عن الإضافة والتخصيص، وعبّر بصيغة الجمع وأدخل «أل» عليها، لتفهم أنها غاشية عامة من الضيق والكرب تمتد إلى كل من يزدحم بهم ذلك الموقف المُريع[2].

وقد يصف القرآن ما يعتلج في النفس من تساؤل تطرحه على ساحة الذهن والفكر «أليس ثمة من ملجأ أو شافع أو مُعين، لا... ليس للظالمين أي ملاذ، إنه الكرب الذي لا مفر منه ولا مخلص، فليس ثمة قريب شفيق، ولا شفيع

(١) انظر «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» لمصطفى صادق الرافعي ص: ٣٠١ الطبعة الثامنة.

(٢) «أحسن الحديث» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص: ٢٢٣ الطبعة الأولى.

يطاع قولُه، أو ينظر في شفاعته، ونفيُ وجود القريب الشفيق إنما هو تصوير لعدم اهتمام المرء إذ ذاك إلا بنفسه، فالأقارب لا يزالون أقارب لبعضهم إذ ذاك، ولكن أحداً منهم لا يتعرّف على الآخر.. فكأن الإنسانية قد قطعتْ فيما بينهم حينئذ فلا وجود لها»[1] وهي كذلك.

ولا يفوت البيان القرآني أن يصف أئمة الكفر وهم يقدمون قومهم إلى النار فأحلوهم دار البوار، يصف أولئك وصفاً سريعاً لكنه غني. قال تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

واستفاض الشريف الرضي في تحليل هذه الصورة الفنية التي ترسمها الآية بسبيل الاستعارة فقال: «وهذه استعارة، والمراد بها أن أئمة الكفر وقادة الشرك لما كانوا كالأزمة المتّبعة والرؤوس المتقدمة وكان قومهم يَعْشون إلى نارهم، ويُصغون إلى أقوالهم، فقادوهم إلى الضلال وأوردوهم موارد الخسار، وشبهوا بقادة الجموع وجرّار الجيوش، إذا أنزلوا من اتبعهم منازلَ الهلاك، وأقحموهم مضايق البلاء، فهلكوا وأهلكوا، وأوردوا ولم يصدُروا، و ﴿دار البوار﴾ في الحقيقة نار جهنم»[2].

ويصف القرآن الكافر وما يعتريه، فهو يحشر على وجهه مهاناً، ثم يدخل النار داخراً ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤] هؤلاء يُسْحبون على وجوههم إلى النار، وهناك في النار امتهان واحتقار وصغار لأنهم كانوا فيما مضى من حياتهم الأولى ضالين[3].

وهكذا يكون الوصف الفني ليوم الحشر والحساب قد شمل مظاهره وعلائمه، وصوره ودلائله، ووصف ما يجري خلاله من أهوال وكروب، وضِيق يُذهل الأبصار ويدهش القلوب.

(١) «أحسن الحديث» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص: ٢٢٣.
(٢) «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي ص: ٩٧.
(٣) تفسير النسفي ٣/ ٣٧٥.